شعرية "التكرار" في النص الشعري الحديث

قصيدة "الطلاسم" نموذجا

أ/ رابح بن خوية
جامعة سكيكدة

التكرار ؛إعادة ذكر كلمة،أو عبارة بلفظها أو معناها في موضع آخر أو مواضع متعددة في نص أدبي واحد(1).وقد أكد الباحثون على أن التكرار:هو أن يكرر المتكلم اللفظ الواحد باللفظ والمعنى.لأن تكرار اللفظ دون المعنى لا يمكن إدراجه تحت مفهوم "التكرار"المتعارف عليه.وإنما هو ظاهرة أخرى مقررة في البلاغة وتسمى "الجناس".وللتكرار مواضع يستحسن فيها ويستجد،ومواضع أخرى يستهجن فيها ويعاب.فمنشأ ثقل التكرار-أحيانا-هو فقدان الكلمة المكررة لأية دلالة شعورية خاصة يستجيب لها وجدان المتلقي،ويتجاوب بها مع إحساس الشاعر،وسواء بعد ذلك أقلّ التكرار أم كثر(2). وهنا تكمن الخطورة التي تتربص بالتكرار حين "يصبح مجرد ثرثرة لفظية،لا تتقدم بالقصيدة،بل ينوء كاهلها بعبء القول المعاد أو الأداء المكرر،فتفقد بذلك توازنها الفني،وتتسرب مكوناتها في تشقيق تكراري باهت(3).

ولتجنب ذلك أشار النقاد ودارسو الأدب إلى"ضرورة توفر بصيرة نافذة تتيح للشاعر أن يتحسس المغزى التكراري فيما يمكنه أن يهيئ للقصيدة تشكيلا تناغميا و وجدانيا في تقارب وتداخل عميقين "(4)ومثل هذه البصيرة وهذا الحس

النقدي يساعد على الوقوف على بواعث التكرار الواعية وغير الواعية لدى الأديب.

وقد جعلت نازك الملائكة من المقاييس المقررة التي تحول دون وقوع التكرار في لفظيات مبتذلة تنأى به عن كل أصالة وموهبة"أن اللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام"(5)، وإلا كان مجرد تشدق لفظي،ربما يؤدي إلى صدام الحس الجمالي،ويفشل في تحقيق الغرض المنوط به،وتلفت النظر إلى أن التعويل على ما بعد الكلمات المكررة لا على التكرار نفسه.وإلى أن التكرار في حقيقته إلحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها.ويخلص إلى أن التكرار يخضع للقوانين الخفية التي تتحكم في العبارة؛ أحدها قانون التوازن،ففي كل عبارة طبيعية نوع من التوازن الدقيق الخفي الذي ينبغي أن يحافظ عليه الشاعر في الحالات كلها،وأن للعبارة الموزونة كيانا ومركز ثقل وأطرافا،وهي تخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة،لأن في وسع التكرار غير الفطن أن يهدم التوازن الهندسي.ويميل بالعبارة.(6)

ووظيفة "التكرار"لا تنحصر فيما حدده (قريماس)حين يقول :"ثمة ما يبرر للتكرار وجوده،إنه يسهل استقبال الرسالة.بل تتعدى إلى غير ذلك.فالتكرار يخدم النظام الداخلي للنص ويشارك فيه،فبإمكان الشاعر من خلال تكرار كلمات مقصودة أن يعيد صياغة بعض الصور،وبإمكانه أن يكثف الدلالة الإيحائية للنص أو الخطاب(7)

وللسياق دور كبير في إنتاج الدلالة التي يساهم "التكرار"في تشكيلها.وقد انتبه البلاغيون

العرب منذ القديم لظاهرة السّياق من خلال مقولتهم:(لكل مقام مقال،ولكل كلمة مع صاحبتها مقام،فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة السياق وربطها بالصياغة،أو بمعنى أصح ربط الصياغة بالسياق.

وقد كان أسلوب "التكرار"من الأساليب التعبيرية المعروفة في الشعر العربي القديم لاحتوائه على إمكانات تعبيرية وأدائية،ولما له من علاقة بظروف الشاعر النفسية،وطبيعة حياته البدوية،فقد كان يلاحظ أنه يثير الحماسة في صدور المحيطين به ويستفزهم للقتال،فكان هذا مبررا كافيا لاستعماله (8).ومن الدلالات التي يؤديها التكرار في الشعر القديم:التحقير والتهوين،ألتوق إلى الماضي والحنين إلى الديار،الانتحاب والرثاء،التأكيد وغيرها ...(9)وتكرار القدامى لاسم معين دال على شخص أو مكان يفسر العلاقة التي ترتبط بين هذا الشاعر والشخص أو المكان الذي يكرره في شعره،فهو تكرار قائم على إحساس الشاعر وعواطفه،ومن ثم فهذا التكرار مؤد لدلالة نفسية عاطفية،والشاعر فيه"يتخذ من العبارة المكررة مرتكزا يبني عليه في كل مرة معنى جديدا،وبهذا يصبح التكرار وسيلة إلى إثراء الموقف،وشحذ الشعور إلى حد الامتلاء".(10)

وإذا كان التكرار في القصيدة القديمة يهدف إلى تحقيق تأكيدات جزئية بواسطة الكلمة أو الجملة المكررة،وإذا كان يرمي إلى إحداث إيقاعي خطابي متجه إلى الخارج فلا غضاضة في هذا مادام هو،في الأصل،يساير الشكل والإطار الذي تتحرك فيه بنية القصيدة التراثية التي أتاحتها ظروفها

التاريخية،مما جعل هذه القصيدة على حد قول رجاء عيد:"قصيدة مفتوحة تكشف عن مدلولها،وتعطي فحواها من أيسر طريق،ولا يعني بذلك تهوينا أو قدحا،فلكل شريحة زمنية ظروفها الموضوعية التي لا يصح محاكمة أولاها على أخراها."(11)

أما "التكرار" في القصيدة الحديثة،فقد تحول إلى خصيصة أساسية في بنية النص الشعري،بوصفه أسلوبا شعريا من أهم أساليب التعبير الشعري،فلم يعد يكتفي بما يظهر على السطوح،أو يقتنع بتلك الفلذات التي تفضي إلى القشرة في لحظات لا واعية،و تتسربل بلفظ أو أكثر،بل صار يسعى إلى الغوص لاكتشاف المشاعر الدفينة،والانفعالات المذخورة ،والإبانة عن دلالات داخلية باطنية،وتحول عن مجرد إحداث إيقاع خطابي وجلجلة لفظية لا طائل منها إلى إبراز إيقاعات درامية نفسية متوغلة في لا وعي الشعراء،وإلى أداة تصوير الحالات النفسية الموغلة في سراديب النفس،وإلى أداة تعمل على ربط القصيدة وتماسك بنائها،وإلى وسيلة لحكاية حركة أو صوت وما إلى ذلك من دلالات ثرية برزت في استخدامات الشعراء.(12)

شعرية التكرار في قصيدة "الطلاسم"

التكرار،في القصيدة، ظاهرة لغوية ذات قيم أسلوبية،ومفهوم الظاهرة،في علم الأسلوب،يشير إلى"الملمح التعبيري البارز الذي يؤدي وظيفة دلالية تفوق مجرد دورة اللغوي،ويقتضي أن يكون للملمح نسبة ورود عالية في النص تجعله يتميز عن

نظائره في المستوى والموقف،وأن يساعدنا على ذلك شفرة النص وإدراك أدائه لدلالته ."(13)

<u>التكرار ومستوياته في القصيدة:</u>

يشكل التكرار خصيصة بارزة في بنية القصيدة "الطلاسم" من الناحيتين الصوتية/الإيقاعية،والدلالية،وهذا الأسلوب لا يأتي على نحو عابث اعتباطي،بل ينبع من معجم لغوي نفسي يعم التجربة الشعرية،ويحتويها،فلكل شاعر معجمه ولكل حالة شعورية معجمها.وقد تقدم في مبحث سابق الإشارة إلى مدى ثراء معجم الشاعر وامتداده واتساعه على مساحة تشتمل على جميع الشؤون والأشياء المرتبطة بالإنسان،والمكونة لبيئته المادية والمعنوية.ولما لأسلوب "التكرار"من دور دلالي فعال في إنتاج دلالة القصيدة وتكثيفها تعرض له في مستوييه:(الصيغة والتركيب)،وفي صورتيه :(البسيطة والمركبة)،مع تحديد أنماطه المتواترة في القصيدة ودلالاتها الأسلوبية السياقية.

أولا:<u>تكرار الصيغة:</u> وهذا النمط يضم الدواخل (حروف الجر،وأدوات الشرط و النداء)،والسوابق (أحرف المضارعة...)واللواحق (الضمائر المنفصلة والمتصلة).

<u>1-الدواخل:</u> تكرار الحروف والأدوات-عامة-سمة ملازمة لأسلوب الشاعر في القصيدة،فقد تواتر حرف الجر (في)بشكل ملحوظ،داخلا على الضمائر كان أم على الأسماء الظاهرة(14)،فمن دخوله على الضمائر دخوله على ضمير المتكلم الياء (ي)، (في + ي)،في شبه جملة متقدمة،ومن هذا النمط قوله:

<u>فيّ</u> مثل البحر أصداف ورمل ولأل.

<u>فيّ</u> كالأرض مروج وسفوح وجبال.

فيّ كالجو نجوم وغيوم ظـــلال
هل أنا أرض وبحر وسماء؟لست أدري (الطلاسم-البحر- 18/ص: 172)
ومن نمط دخوله على الاسم الظاهر: (في +اسم)قوله:
لم أجد في القصر شيئا ليس في الكوخ المهين
أنا في هذا وهذا عبد شكي و يقيني
وسجين الخالدين،الليل والصبح المبين
هل أنا في القصر أم في الكوخ أرقى؟ لست أدري.
(الطلاسم-بين القصر والكوخ- 4 /ص :160)
ومنه قوله : هي في رأي فكرة،وهي في عيني نور
وهي في صدري آمال،وفي قلبي شعور
وهي في جسمي دم يسري و يمور
إنما هي من قبل هذا كيف كانت؟لست أدري
(الطلاسم-صراع وعراك-25 /ص:176)
ومن الدلالات الأسلوبية التي يضطلع هذا الحرف بتأديتها الدلالة على الظرفية سواء كانت حقيقية أم مجازية(15)،وبالإضافة إلى ذلك فهو يأتي للتركيز على مكان خاص يعد محط اهتمام الشاعر وسؤاله،وذلك في سياق تقصي الشاعر وتنقيبه عن جوهر الأشياء،وجوهر النفس بنية الوقوف على الحقائق،ولذا دخل على الحرف (في)على عناصر متعددة طبيعية ونفسية.
ومن استخدام (في) للدلالة على التبعيض في سياق تساؤله عن وجوده السابق الحال في الأشياء على عقيدة أهل الحلول.فالحرف(في)يشير إلى احتواء الإنسان في عناصر الوجود –قديما-

أرضية كالبحر،أو سماوية الكواكب البعيدة،وهما نظريتان طبيعيتان في تفسير نشأة الإنسان وأصله،ومن ذلك قوله:

أتراني كنت يوما نغما من وتر
أم تراني كنت قبلا موجة من نهر
أم تراني كنت في إحدى النجوم الزهر
أم أريجا أم حنينا أم نسيما؟لست أدري

(الطلاسم-صراع و عراك17 /ص:172)

ومن تكرار الحروف ، تكرار اللام (ل) للدلالة على الملكية (16) أو الاختصاص أو التخصيص ، في سياقات التساؤل عن مدى تصرف الإنسان في أشيائه ، حقيقة هو ؟ أم على سبيل المجاز ، لكونه لا يملك ملكية واضحة و خاصة للأشياء . لأن شرط التملك مفقود،فالشاعر/ الإنسان شاك في حريته ، غير متيقن من اختياره ومن هذا النمط التكراري الحر قوله (ل + اسم ظاهر):

ربّ بستان قضيت العمر أحمي شجره
ومنعت الناس أن تقطف منه ثمره
جاءت الأطيار في الفجر فناشت ثمره
ألأطيار السما البستان أم لي؟لست أدري

(الطلاسم- صراع و عراك-8 /ص: 167)

ومن نمط (ل +ي) اللام + الضمير ، قوله:

كل يوم لي شأن كل حين لي شعور (الطلاسم-صراع و عراك-5 /ص: 168)

وقد ترد اللام لتأدية دلالة التبليغ (17) لاسيما بعد فعل القول ، نحو قوله :

يا كتاب الدهر قل لي : أله قبل وبعد
أنا كالزورق فيه وهو بحر لا يحد
ليس لي قصد،فهل للدهر في سيري ؟

حبذا العلم ولكن كيف أدري؟لست أدر
(الطلاسم-البحر-10 /ص: 147)
ومن تواتر اللام للدلالة على التخصيص والتوكيد ، قوله:
ألِهم يا بحر يوما رجعة أم لا مآبا ؟
(الطلاسم-البحر-8 /ص: 145)
ومنه للدلالة على انتهاء الغاية :
قد رأيت النمل يسعى مثلما أسعى لِرزقي
(الطلاسم- صراع و عراك-22 /ص: 174)
حرف الجر (من): وقد تواتر حرف الجر (من) ، لأداء جملة دلالات ، لا سيما إذا كان جارا لاسم ظاهر بعده ، و منه قوله :(من + اسم)للدلالة على التبعيض:
أنا لا أذكر شيئا من حياتي الماضية
أنا لا أعرف شيئا من حياتي الآتية
لي ذات غير أني لست أدري ماهيه
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي ؟ لست أدري
(الطلاسم– صراع و عراك-27 /ص: 177)
و منه أيضا للدلالة نفسها ،قوله:
من شراب الشهد و الخمرة و الماء الزلال
من طعامي البقل و الأثمار و اللحم الحلال
كم كيان قد تلاشى في كياني و استحال
كم كيان فيه شيء من كياني لست أدري
(الطلاسم-صراع و عراك-19/ص: 173
و منه للدلالة على التعليل و بيان السبب ، قوله:
قد دخلت الدير استنطق فيه الناسكينا
فإذا القوم من الحيرة مثلي باهتونا
(الطلاسم-في الدير-6 / ص: 151)

و منه للدلالة على بيان مصدر الشيء و التخصيص ، لا سيما إذا كان حرف الجر داخلا على ضمير ، في خطاب الشاعر إلى البحر ، و في خطاب ذاته، قوله :

قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحر منكا
أ صحيح ما رواه بعضهم عني و عنـكا
أم ترى ما زعموا زورا و بهتانا و إفكـا
ضحكت أمواجه منيي و قالت لست أدري

(الطلاسم-البحر-1 / ص: 142)

و منه للتفرقة بين شيئين؛بين فاضل و مفضول،و ذلك في سياق المفاضلة المشوب بالاستفهام، في نحو قوله :

أ أنا أفصح من عصفورة الوادي و أعذب ؟
و من الزهرة أشهى ؟ و شذا الزهرة أطيب ؟
و مـن الـحية أدهى ؟ و من النملة أغرب ؟

حرف النداء (يا):

و يتكرر هذا الحرف ، في سياقات المناجاة و الشكوى ، و إن كان في الأصل للتنبيه و نداء البعيد -بعدا حسيا أو معنويا ، و فيه يتضافر الصوت الممدود مع المعنى الصادر من أعماق الشاعر ، للتنفيس عن الحيرة و عن وطأة القلق و الشك ، و التشوق للمعرفة.

و تتواتر الياء (يا) في نداءات متكررة موجهة إلى البحر ، بوصفه صديقا للشاعر و رفيقا في درب البحث عن الحقيقة كبديل للصديق و الخليل في القصيدة العربية ، فالبحر مستودع المعرفة ، و كنز الحقيقة التي يطمح الإنسان إلى فك أسرارها ذات يوم ، و البحر مستمع واع بهموم الشاعر ، مدرك لهواجسه و وساوسه ، فيخاطبه

متسائلا عن علاقته به ، و مصيره و عن إمكان عودته ، و من ذلك قوله : (الأداة مذكورة) :

قد سألت البحر يوما هل أنا –يا بحر– منكا(الطلاسم –البحر-1 /ص : 142)

أنت –يا بحر- أسير آه ما ا عظم أسرك(الطلاسم – البحر-3 /ص : 143) أ لهم –يا بحر- يوما رجعة أم لا مآبا (الطلاسم –البحر-8 /ص : 145) إنما أنت بلا عقل و لي - يا بحر-عقل (الطلاسم –البحر-9 /ص : 146) إن في صدري –يا بحر- لأسرارا عجابا (الطلاسم –البحر-11 /ص : 147)

إني –يا بحر- بحر شاطئاه شاطئاك
الغد المجهول و الأمس اللذان اكتنفاكا
و كلانا قطرة –يا بحر –في هذا و ذاكا

لا تسلني ما غد ما أمس ؟ لست أدري (الطلاسم – البحر-12 /ص : 147)

و قد يرد حرف النداء في نداء غير البحر كالدهر و القبر و الصديق ، نحو قوله:

يا كتاب الدهر قل لي أ له قبل و بعد (الطلاسم – البحر-10 /ص : 146)

أيها القبر تكلم و اخبريني يا رمام(الطلاسم –بين المقابر-4 /ص : 154)

3يا صديقي لا تعللني بتمزيق الستور (الطلاسم –بين المقابر-9 /ص : 155)

ففي هذه السياقات تلعب الياء (يا) دورا بارزا في إنتاج الدلالة و تأديتها إذ هي وسيلة أسلوبية اتكأ إليها في نقل حيرته و شكه و أزمته الوجودية إزاء الأشياء و المصير ،و البعث و معظم مشكلاته ، و قد حولت (الياء) البعيد إلى قريب ، و نقلته من حيزه المبهم الغامض الغريب إلى المألوف المأنوس و

مدت بين الشاعر و مناديه علاقة روحية صوفية عميقة الجذور .
حرف الكاف: و يتواتر حرف الكاف (ك) بنسبة ملحوظة إلى جوار الاسم (مثل) كدال على التشبيه و التأكيد و التعليل و التفصيل (18) ، خاصة عندما ترد في سياق المقارنة التي يجريها الشاعر بينه و بين بعض كائنات الوجود ، بحثا عن الفارق بينه و بينها ، و بحثا عن الغاية المرادة من وراء وجودها،و بحثا عن سر اختصاص الإنسان و تفرده بأشياء حبته بها الطبيعة ، في حين تفتقدها تلك الكائنات ، و قد تشرك (مثل) مع هذا الحرف لتأكيد تلك العلاقات الملحوظة بين الإنسان و الأشياء ، و لأداء معاني أسلوبية للتسويه بين مصائر الكائنات ، و الدلالة على صيرورة الحال و تغيره و الدلالة على رثاء الماضي و الأسف لأجله ، و من أنماط ذلك في القصيدة ، قوله :

في مثل البحر أصداف و رمـل ولآل
في كالأرض مروج و سفوح و جبال
في كـالنـجوم و غـيوم و طـلال

هل أنا أرض و بحر و سماء؟ لست أدري(الطلاسم – صراع و عراك-18 /ص : 172)

و من ذلك، قوله:

أنا كالصـهباء،لكن أنـا صـهبائي و دني
أصلها خاف كأصلي،سجنها طين و سجني
و يزاح الختـم عنـها مثلما يـشق عـني

و هي لا تفقه مـعناها،و إني لـست أدري (الطلاسم –صراع و عراك-23 /ص : 175

و منه قوله:

لي إيمـان لكن لا كإيمــاني و نسـكي

إنني أبكــي و لكن لا كما كنـت أبكي
و أنا أضـحك أحيانا،و لكن أي ضحـك
ليت شعري ما الذي بدل أمري لست ادري(الطلاسم –صراع و عراك-4 /ص : 165)

في هذا السياق ترد الكاف(ك) لا لتأكيد علاقة التشابه بين حال و حال بل و كذلك للدلالة على أفضلية الحال السابق ،و على التشوق إليه ، و التساؤل في سر تغيره و انقلابه ، خاصة عندما تقترن في السياق بتكرار كلمات معينة ، و توظيف أداة الاستدراك (لكن) للإشارة إلى تبدل الحال ، و نسخ الحال الماضية.

حرف (رب) :

و من الحروف المكررة في القصيدة الحرف الشبيه بالزائد(رب) للدلالة على معان أسلوبية متعددة بتعدد سياقاتها، و منها التحقيق و التقليل،و التكثير و التوقع ، و قد تتعدى هذا إلى الدلالة على الأسى و الأسف على زمان الماضي و التعجب من قيمه، أو الرغبة إلى الحال و من ذلك قوله:

رب أمر كــنت لما كان عنــدي أتقيه
بت لما غــاب عـني و تـوارى اشتـهيه
ما الذي حـببه عنـــدي و مـا بغضنيه
أ أنا الشخص الذي أعرض عنه؟ لست أدري (الطلاسم –صراع و عراك-6 /ص : 166
رب قبح عند زيد هـو حسـن عنـد بكر
فهـما ضـدان فيـه و هو وهم عند عمرو (الطلاسم – صراع و عراك-9 /ص : 167

و منه قوله:

رب شخص عشت معه زمـنا ألهو و أمـزح
أو مكان مر دهر و هو لي مسرى و مـسرح

لاح في البعد أجـلى منه في الـقرب و أوضح
كيف يبقى رسم شيء قد توارى؟ لست أدري
(الطلاسم –صراع و عراك-7 /ص : 166
و لا يخفى ما في (رب) من دلالة على الشك و الحيرة و التردد،خاصة عندما تقترن في السياق بصيغة الاستفهام، الذي قد يدل بدوره –و من كثرة تواتره-على الدلالات نفسها،التي تفضي إلى تكوين البنية العامة للقصيدة.
2-السوابق:
و يلفت النظر في القصيدة ثلاث سوابق لكثرة تواترها ،و هي الواو و حروف المضارعة و ضمير المتكلم و هي –جميعا- تأتي لأداء دلالات أسلوبية تنطلق من السياق .
أ-الواو: (و):وهي حرف من حروف عطف النسق،و تفيد الترتيب و الاشتراك و عكس الترتيب كما أشار إلى ذلك جل النحاة ، و في القصيدة تأتي الواو الأولى في مقدمة الأفعال و الأسماء و الضمائر ، و هي بالإضافة إلى دورها في الربط بين التساؤلات المختلفة و المتناقضات المتعددة التي أقلقت الشاعر و قضت مضجعه ،تعمل على تداعي الأفكار و المشاعر و الأخيلة،و من خلال تواصل القصيدة مع الشاعر تترك الواو مجالا مفتوحا للقارئ التلقي لاستدعاء وساوسه المخبوءة و شكوكه الدفينة و من أنماط استخدامها في القصيدة للربط بين حالتين،قوله:
و لقد أبصرت قدامي طريقا فمشيت
و سأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت(الطلاسم-مدخل-1 /ص : 139)

2- و من ذلك- للربط بين التراكيب الاستفهامية - قوله:

أيها البحر أ تدري كم مضت ألف عليكا؟
و هل الشاطئ يدري أنه جـاث لـديكا؟
و هل الأنهار تدري أنهـا منـك إليكـا (الطلاسم-البحر-2 /ص : 142)

3-من استخداماتها- للربط بين الحال الفعلية - في القصيدة ، قوله أيضا:

قد سألت السحب في الآفاق هل تذكر ملك؟
و سألت الشجر المورق هل تعرف رمـلك ؟
و سألت الدر في الأعناق هل تـذكر أصلك
و كأني خلتها قــالت جميعا لـست أدري (الطلاسم-البحر-5 /ص: 144)

4-و من أنماط دخولها على الجملة الاسمية التي يكون المسند إليه فيها خبرا،قوله:

هـي في رأسـي فكـرة و في عني نور
و هي في صدري آمال وفي قلبي شعور
و هي في جســمي دم يسري فيه و يمور
إنما من قبل هذا كيف كانت؟ لست أدري (الطلاسم-صراع و عراك-25 /ص: 176)

ب-حروف المضارعة:من تكرار السوابق حروف المضارعة،و هي شائعة الاستخدام في قصيدة "الطلاسم"،و تؤدي دورا دلاليا بارزا في دخولها على الجملة الفعلية، للدلالة على الحال أو الاستقبال، أو قلب هذه الدلالة في حال اقتران السياق بما يدعو إلى ذلك.

و من أنماط توظيف حرف المضارعة(أ)، للدلالة على حادث في زمن مضى و استمرار الفعل في

ذلك الزمان،لكون الفعل المضارع مقرونا بـ(كان) التي تقلبه إلى المضي .

و من ذلك قوله:

أتراني كنت أدري أنني فيه دفين

و بأني سوف أبدو، و بأني سأكون

أم تراني كنت لا أدرك شيئا؟لست أدري (الطلاسم-مدخل-4 /ص: 141)

فالهمزة في الأفعال(أبدو،أدري ، أكون ،أدرك)تشير في سياقاتها الأسلوبية إلى ذات الشاعر المتضخمة بفعل الدراية و الوجود و الإدراك،و ذلك لتحقيق الذات و سعيها للتحقق فعلا،و تكرار هذا الحرف يعني تكرار هذه الدلالة.مع ما يتلبس هذه الدلالة من ظلال الشك و التردد.

2-من أنماط استخدامه للحرف المضارعة(أ) نفسه ، في سياق النفي الذي تتخذ فيه الذات-ذات الشاعر-موقفا سلبيا،قـــــوله:

أنا لا أذكر شيئا من حياتي الماضية

أنا لا أعرف شيئا من حياتي الآتية

لي ذات غير أني لست أدري ماهية

فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي لست أدري (الطلاسم-صراع و عراك-26 /ص: 176)

-و يرد حرف المضارعة (الياء)في فعل مضارع مسند إلى أشياء العالم التي وقف الشاعر إزاءها متسائلا، فمن ذلك قوله :

قد يصير الشوك إكليلا لملك أو نـبي

و يصير الورد في عروة لص أو بغـي

أيغار الشوك في الحقل من الزهر الجني

أم ترى يحسبه أحقر منه لست أدري (الطلاسم-صراع و عراك -12/ص: 169)

و من ذلك قوله حين الحديث عن خضوع الكائنات لناموس الحياة الثابت فلا حرية و لا اختيار فمداراتها معلومة و الوظيفة المنوطة بها مرسومة،فهي تؤدي أدوارا كما يؤدي الإنسان و بذلك تتشابه معه و تشترك معه –أيضا-في هذا الجبر الذي لا يخرج عن إطاره أحد فيقول الشاعر مستخدما الأفعال المضارعة المبدوءة بالياء ،للدلالة على الضيقة و النسيان على الحال و الاستقبال بالإضافة إلى ثبات و دوام الوظيفة و الدور الذي تنهض به المخلوقات غير العاقلة،كقوله:

إن هذا الغيث يهمي حين يهمي مكرها
و زهور الروض تفشي مجبرات عطرها
لا تطيق الأرض تخفي شوكها أو زهرها
لا تسل أيهما أشتهي و أيهم ؟لست أدري(الطلاسم- صراع و عراك-11/ص:161

<u>3-اللواحق:</u>

تكرار الضمير:

تكرار "الضمائر "ملمح أسلوبي آخر لا يغفل عنه و علامة نصيبه جديرة بالاهتمام لما له من دلالة أسلوبية في قصيدة "الطلاسم"،فالضمير أحد وسائل الشاعر للتعبير عن قيمتي :الحضور و الغياب وهو –بناء على ذلك- تعبير عن مكنونات النفس و وساوس الفكر ،و الحيرة الوجودية و التردد بين الشك و اليقين ،الكفر و الإيمان ،و بين النفي و الإثبات ،مستهدفا بذلك التركيز و التكثيف بالموازاة مع تكوين الضميرو ضآلة حجمه ،بالإضافة غلى ذلك فالضمير حضور جوّاني يعبر عن الإنية الواعية أو الـ(أنت)، أو الـ(هو)في تراكيب خاصة . (19)

و الضمير في اللغة العربية ثلاثة أقسام:

1-ضمير المتكلم: (أنا ،ت،ي،نحن،نا)

2-ضمير المخاطب:

(أنت،ت،ك،ت،أنتما،تما،كما،أنتم،تم،كم،أنتن،كن)

3-ضمير الغائب:

(هو،هـ،هي،ها،هما،هي،هم،هن،ن،هن)

ومع ملاحظة انقسام الضمير إلى بارز و مستتر،إذا كانت له صورة في اللفظ أولا ،و إلى متصل أو منفصل ؛ فالمتصل هو :الذي لا يستقل بنفسه

و المنفصل هو الذي يستقل بنفسه،كأنا و أنت و هو.وهو كذلك ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب مواقعه في الإعراب؛مرفوع ،منصوب،مخفوض . (20)

وسيقف البحث عند هذه الضمائر،مكتفيا بضمائر المتكلم في حالة الانفصال،وعنوان بابها(أنا)،وضمائر الغائب،وعنوان بابها(أنت)،وضمائر الغائب،وعنوان بابها(هو،هي)،وذلك لدلالة هذه الضمائر الثلاثة على مجموع الضمائر ،حاضرا وغائبا،ولأننا من خلالها نستجلي الدلالة الأسلوبية التي تؤديها في القصيدة بوصفها تعبيرا عن الإنسان متكلما ومخاطبا ،حاضرا وغائبا،وبوصفها تعبيرا عن الأشياء التي لا تعني شيئا في معزل عن الإنسان.

و بعد قراءة إحصائية سجل البحث ثلاث ملاحظات هامة:

1-سيادة الحضور على الغياب.

2-سيادة المفرد المتكلم و المخاطب،(أنا)،(أنت)،و الغائب(هو،هي) على الثنية و الجمع.

3-سيادة المفرد المتكلم(أنا)على بقية الضمائر في كامل القصيدة.

أولا:<u>ضمير المتكلم:</u>

طغى ضمير المتكلم(أنا) على بقية الضمائر في القصيدة،فقد تواتر في صورة الإفراد-التي آثرنا الوقوف عندها لما لها من دلالات أسلوبية في السياقات المختلفة-(27)مرة بنسبة تقدر بـ(50%) بشكل صريح و جرئ في مواجهة قضايا حرجة، و شواغل ملغزة خاصة إذا جاء في صدارة الكلام.

و قد يتكرر ضمير المتكلم(أنا)على الرغم من ميل الشاعر في كثير من المواضع إلى الاتحاد مع الآخر،حاضرا كان أم غائبا، لأن الـ(أنا)أو الـ(أنت)،أو الـ(هو) هي في الأخير رموز إشارية عن كائن وحيد هو بؤرة القصيدة و مدار الحركة فيها،أي:الإنسان.و الشاعر(أنا،أنت،هو)يتحدث بلسانه عن مأساته مشفقا عليه من بشاعة المصير الذي يترصده.فـ(أنا)مجاز مرسل-في منظور البلاغيين-في أي عبارة وردت من القصيدة،لأن الشاعر لا يعني بها ذاته فحسب،و إنما هو يتحدث و يتساءل عن الإنسان، عامة،

فاستخدم ضمير المتكلم،معبرا بالجزء عن الكل،أي:الإنسان، و الشاعر جزء من هذا الكل،فالعلاقة الجزئية.(21)و نزوع الشاعر إلى التعبير بـ(أنا)؛أي بالجزء عن الكل،يدل على حدة المشكلة التي يعانيها هو أولا كفرد من هذا النوع،بوصفه شاعرا أكثر حساسية من بني جنسه.و يفسر شعور إيليا بامتلائه بنفسه و تعظيمه إياها،و معايشته لمحنته الوجودية، واستشعاره لمأساته و في هذا تشخيص للقائل؛فـ(أنا)وعاء للقلق الوجودي،و منزل للحيرة النفسية و الشعورية،و ظرف للإضطراب الفكري،و محط

الهموم،و في الأخير مناط السؤال.فالشاعر رائد في طليعة الناس.

1- و من أنماط التعبير بالضمير المتكلم(أنا) المشخص للإنسان،قوله:

أ جديد أم قديم أنا في هذا الوجود
هل أنا حر طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنى أنني أدري و لكن لست أدري (الطلاسم-مدخل-2/ص : 140)

و الملاحظ أن الضمير (أنا) يكون أكثر تواترا و بروزا في مواضع تطلع الإنسان إلى معرفة كنه حقيقة؛ بين قدمه و حدوثه،بين جبره و اختياره... و ما هذا الإلحاح على الظهور لـ(أنا)على مستوى البنية السطحية و النسيج اللغوي إلا انعكاس لإلحاح آخر على مستوى البنية العميقة،و النسيج المضموني للقصيدة،و ما ذلك إلا لكون القضية قضية الإنسان،و الشاعر / الإنسان مشغول بها،و هو –في الوقت نفسه-موضوعها و مادتها.و أكبر دلالة أسلوبية لتكرار الضمير بهذا الثقل هي تخصيص الإنسان و حصر القضية فيه،بعده بؤرة القصيدة الدلالية.

2 -و من استخدامه للضمير(أنا) في سياق الحديث عن حياته و عمره، و ما مقدار الشوط الذي قطع،و مقدار الشوط الذي ينتظر،قوله:

و طريقي ما طريقي؟أ طويل أم قصير؟
هل أنا أصعد أم أهبط فيه و أغور
أ أنا السائر في الدرب أم الدرب يسير
أم كلانا واقف و الدهر يجري لست أدري (الطلاسم- مدخل-3/ص:140)

يتواتر الضمير(أنا) مرتين لأن الدلالة السياقية تتطلب ذلك،و تخصصه فيكون مركز الثقل في المقطوعة لكونه محور هذه القضايا المستفهم عنها، فهو العاقل الوحيد و المفكر الفريد بين الموجودات الذي يستبطن ذاتهن و يتأمل حياته و وجوده و يفكر في كل شيء،و بهذه المقدرة على جعل ذاته موضوع فكره حينا و المتحكمة في زمام هذا التفكير حينا آخر أصبح كائنا متميزا.فقضاياه الكبرى لا تعني لغيره شيئا.و لهذا يتكرر الضمير تأكيدا على الشعور الحاد بالمسؤولية.و على الشعور بضرورة تأكيد ذاته،و السعي ليكون شيئا ذا بال بين وطأتين ثقيلتين،و قوتين ساحقتين تشعرانه بهشاشته و تفاهة حياته، وطأة الزمن المعبر عنه بالدهر ، و وطأة المكان المعبر عنه بالدرب ، فالأول لا يغالبه أحد و الثاني خالد يشهد تقلبات الحياة و يحمل في طياته سر الإنسان،و حياة الشاعر(أنا)أسيرة بين الدهر و الدرب السيار.

و إذا كان الدهر ثابتا لا يتحول بالمقارنة مع تحول الإنسان و سيرورته،و إذا كان الدرب قائما لا يتغير،فالإنسان الوحيد الذي تطاله قوى التحول و التغير، و تفقدانه في النهاية حياته، فيقول في ذلك ملحا على تكرار الـ(أنا):

كل يوم لي شأن كل حين لي شعور
هل أنا اليوم أنا منذ ليال و شهور
أم أنا عند غروب الشمس غيري في البكور
كلما ساءلت نفسي جاوبتني لست أدري
(الطلاسم-صراع و عراك-5/ص:166)

فلا بدع أن يتواتر الضمير(أنا) مرتين،في القواعد و في سياق الاستفهام عن الحال،حال الإنسان

وسيرورته و تبدله من لحظة إلى أخرى.و قد أضفى تواتر الضمير نوعا من وعي الإنسان وإدراكه وتنبيهه لما يحدث له،وفي كيانه،من سير حكيت إلى نهاية محتومه.ومن تطور مفروض إلى غاية لا محيد عنها،وهذا ما جعله يتخذ موقف السائل لنفسه التي لا تعلم شيئا.

ومن الدلالات الأسلوبية التي يلم بها الضمير (أنا)في السياقات التي يرد فيها،التوق إلى الالتحام بالأصل،في خطابه للبحر،الذي شهد بداية الحياة الإنسانية،يقول الشاعر:

قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحر منكا؟

وخلاصة تكرار ضمير المتكلم (أنا)في القصيدة،فهو يدخل في علاقات تركيبية متنوعة،وهو بالإضافة إلى عمله الوظيفي في نحو الجملة فاعل دلالي في النص مكثف للدلالة،وغدا من ثم بؤرة لروية الشاعر،وموحيا بمواقفه الشعورية والفكرية في الأشياء التي يتكلم عنها .

ثانيا <u>ضمير الغائب:</u>

تواتر ضمير الغائب-في صورة الإفراد (هو-هي)بنسبة أقل من قسيمة الأول،إذ تقدر تقريبا بـ(33.33%)،فقد تواتر في نص القصيدة (18مرة)والشاعر وظفه لتأكيد معاني متنوعة ومتناقضة أحيانا،فهو يعبر به عن حضور الإنسان الواعي المدرك للحقيقة.على ما يحمله هذا الوعي والإدراك من حركة،في مواجهة الحضور المعاكس الذي تمثله الأشياء الساكنة المزاحمة للإنسان في وجوده،والتي يجهل الإنسان مغزى وجودها،والغاية من خلقها،وأحيانا،تكون دلالة التعبير بضمير الغائب (هو،هي)التسوية بينه وبين غيره من موجودات في

الجهل المطلق،و قد يحمل الشاعر الضمير-بالتضافر مع دلالة التركيب-دلالة التحقير لهذه الموجودات الكبيرة العظيمة العاجزة الضعيفة.التي لا تعاني ما يعانيه الشاعر و لا تكابد ما يكابده ، و من دلالات الضمير أيضا الإشارة إلى الإهمال و الإبعاد الناتجين عن الاحتقار أو السخرية أو الاستهزاء.

و قد يرد الضمير للدلالة على تفاعل بعض الأشياء مع الشاعر و فعلها و تأثيرها فيه، مما يجعله يقف منها موقف الإعجاب و الاستحسان.

1-و من تواتر الضمير لأداء دلالة الأسلوبية من تلك، قوله:

و لقد أبصرت قصرا شامخا عالي القباب
قلت ما شادك من شادك إلا للخـراب
أنت جزء منه لكن لست تدري كيف غاب
و <u>هو</u> لا يعلم ما يحوي أيدري؟ لست أدري
(الطلاسم-القصر و الكوخ-1 /ص: 158

2-و من ذلك قوله:

كم قصور خالها الباني ستبقى و تـدوم
سحب الدهر عليها ذيله فهي رسـوم (الطلاسم-القصر و الكوخ-3 /ص: 159)

3-و قد يتواتر ضمير الغائب(هي) ملحوظ ينم عن التنبيه إلى قيمة المشار إليه و الموقف الموجب الذي يقفه الشاعر منه،كقوله في الصهباء:

أنـا كالصهباء لـكن أنا صهبائي و دني
أصلها خاف كأصلي،سجنها طين كسجني
و يزاح الخـتم عنها كـما يـزاح عـني
و هي لا تفقه مـعناها و إني لست أدري
(الطلاسم-صراع و عراك-23 /ص: 175)

و يواصل الشاعر قوله:

هي في رأسي فكرة و هي في عيني نور
و هي في صدري آمال،و في قلبي شعور
و هي في جسمي دم يسري فيه و يمور

إنما من قبل هذا كيف كانت لست أدري (الطلاسم-صراع و عراك-25 /176)

لقد تواتر الضمير (هي) في المقطوعة السابقة أربع مرات(04) في شكل متعاقب متتال مما يدل على التأكيد على قيمته،و على استحسان الشاعر للخمر المعبر عنها بالضمير....تنويها بشأنها، فهي تحمل بعدا روحيا دينيا.

ثالثا:ضمير المخاطب أما ضمير المخاطب فقد تواتر نسبة أقل من قسميه السابقين ، إذ بلغت (16.66 %) و شكل تكراره 9 مرات ، ولعل أكبر دلالة يمكن استكشافه من خلاله هي الرغبة في التوحد مع الأشياء و الحلول في جواهره ، بحيث يغدو الإنسان والأشياء وحدة مندمجة العناصر بلا انفصال أو تمايز ، فيقول في وحدة (القصر و الكوخ):

يا مثالا كان وهما قبلما شاء البناة
أنت فكر من دماغ غيبته الظلمات
أنت أمنية قلب أكلته الحشرات

أنت بنيت الذي شادك لا . لا .لست أدري (الطلاسم-القصر و الكوخ- 2 /ص: 159

فالشاعر من خلال تكرار الضمير أنت يلح على تأكيد العلاقة الوثيقة و الصلة المتينة بين الإنسان و بعض منجزاته في الحياة خاصة تلك التي تبقى بعده و تعمر طويلا بعد ما يذهب هو و يتلاشى .مما هو مشاهد من هذه المنجزات على وجه الأرض هو جزء أصيل من هذا الإنسان من فكره ، و من شعوره ، و

في هذه المنجزات آثار واضحة على منجزيها و لمساتهم فيها لا تغيب و حاضرة مشيرة إلى ذواتهم و خصائصهم الفكرية و الروحية. حتى يكاد الشاعر يرى في القصر و بانيه فكأنهما شيء واحد.لكن المفارقة التي تنهض موجعة قلب الشاعر مثيرة قلقه مستحثة فكره.هي كيف يتلاشى هو، هو الإنسان الباني المبدع،و تظل هي قائمة تقارع الزمان،أم كان الأحرى أن يبقى هو،و تضمحل هي و ينالها الفناء،فتواتر الضمير (أنت) ثلاث مرات في صدر كل جملة ينبه الذهن على هذه الحقيقة و يؤكدها.

و من أنماط استخدامه الضمير (أنت) في بيان تلك المفارقات التي لم يستوعبها عقل الشاعر،قوله في خطاب البحر:

أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك

أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك (الطلاسم-البحر-3 /ص: 143)

فالضمير (أنت) في التركيب الأول مفعم بدلالة الإعجاب و التعظيم للبحر في النفوس إلى درجة الإبهار و الذهول لكن هذا الضمير ذاته ينقلب إلى التحقير في التركيب الثاني،فيرد مشحنا بدلالة التحقير و التهوين بوصف البحر جبارا ثم لا يملك أمر نفسه كهذا الإنسان.و من ثم إصدار حكم ثابت على الأشياء،فالشاعر لم يستقر على حال،و لم يثبت على موقف،و أنى له ذلك و هذه المخلوقات العظيمة تنطوي على تناقضات واضحة.

و هكذا يتم تشكيل القصيدة على مستوى الضمائر فمن (أنا)إلى (أنت) إلى(هو)،و يمكن عد هذا التوظيف في الضمائر ،و ما يتبعه من إثراء الدلالة في القصيدة من الالتفات (22)و هو

أسلوب بلاغي عرفه الدرس البلاغي العربي مبكرا .و لجوء الشاعر إلى توظيفه إنما يتم بدافع الاستفادة من إمكانيات الحيوية و اليقظة الملازمة للانتقال من حالة حضور إلى حالة غياب ،توجه إلى خطاب ...كما تبين ذلك من الأنماط السابقة المجسدة للانتقال من الحضور غلى الغيبة في التكلم عن النفس و خطاب البحر و القصر و الحديث عن الصهباء.و بين الـ(أنا) و الـ(أنت) و الـ(هو) تتسع بنية القصيدة و تتعمق و يمتد فضاؤها .و إذا كان وظف الضمير (أنا) في مدخل قصيدته ، و زاوج (أنا) و (أنت) و (هو) في وسطها فقد خرج منها في آخر مقطوعة موظفا الضمير (أنا) الذي كان قد بدأ به معطيا بذلك الأداء الضميري صفة التنوع التي تولد اليقظة و الانتباه و كسر الرتابة ، و مفاجأة المتلقي بتحويل الأسلوب إلى جهة غير مألوفة .

و بناء على ذلك فقيمة "الالتفات "الأسلوبية تكمن فيما يتحقق من توسع دلالي من خلال إنتاج دلالات يحددها السياق؛من تعظيم لحال المخاطب ،و تفخيم لشأنه إلى معان ضديدة لهذه ،وهكذا فكلها دلالات وليدة السياق .(23) فالضمير –إذن-قد غدا عنصرا مكونا لبنية القصيدة و ملمحا أسلوبيا ،يقوم بدوره في إنتاج الدلالة الشعرية ،و هذا الأسلوب هو ما يطلق عليه صلاح فضل تسمية (استعارة الضمائر)ويعني به :تبادل المواقع بين الضمائر على مستوى القصائد ،حيث يتم الارتكاز على أحد المواقع في الخطاب الشعري عن طريق التجريد أو التقمص ؛ و يقصد به الإشارة إلى موقع آخر مقابل له ،و لا يخلو الأمر حينئذ من امتداد ظلال الدلالة إلى المنطقة الجديدة التي انتقل إليها الخطاب (24).

فضمير المتكلم (أنا) ليس سوى الإنسان في لحظات التأمل ،إلا أن الشاعر و لإجراء عملية إسقاط نفسي و شعوري لما ينتابه من وساوس الشك و القلق الوجودي على جمادات غير عاقلة من الكائنات و على آدميين من جنسه ، و يلجأ إلى تقمص شخصية الآخر ليعيد تمثيل المواقف ،و ليرتب الإجابة المقتنع بها سلفا ، مشخصا تلك الجمادات و مؤنسنا لها من خلال النطق بلسانها و الإحساس بإحساسها .و من جهة أخرى فالـ(أنا) هو الـ(أنا) الشعري الفاعل في القصيدة و ليس الشخص المتكلم الحي ،وهو الذات الغنائية المنطلقة إلى آفاق الآخرين، و بهذا يأتي الضميران (أنت)،(هو) لتقليص ضمير المتكلم لحالته الفردية،و لا تصبح الذات هي مركز الثقل في القصيدة بل تتداخل جميع الضمائر لتشكل بؤرة دلالية ثلاثية الشكل تتجاذب دلالة القصيدة العامة،فالإنسان/الشاعر هو (أنا)،و (أنت)،و(هو).و لا نفهم حضور واحد من هذه الضمائر في فضاء النص إلا في ضوء فهم علاقته بقسيميه الآخرين و حضورهما.

و خلاصة الحديث عن الصور المتعددة لأنماط التكرار،سواء ما كان حرا أم ما كان نسقيا،بإعادة حرف(صوت)،أو كلمة(مجموعة من الأصوات) أو جملة،فكله يشير إلى أن التوتر الوجداني الذي يفترش مساحة القصيدة قد وصل إلى غايته،أو تدرج إلى قمته، و لم يبق أمام الشاعر سوى الصمت بعد أن استفرغ كل جهده في السؤال،و فقد بواسطة توتره القدرة على الاستمرار و الإبانة عن مشاعره الغائصة ،و قنع بإجابة العقل: (لست أدري). و التكرار كوسيلة أسلوبية يعني الإلحاح في العبارة على معنى شعوري يبرز من عناصر الموقف الشعري أكثر من غيره و يشع الإثارة العاطفية ليحقق الاستجابة و المشاركة الوجدانية.و يضطلع أيضا بتصوير الحالة النفسية الدقيقة للشاعر المأزوم نفسيا و عقديا، و في أغلب الأحيان يتعلق

وعي الشاعر في لحظات المحن و الآزمات النفسية و الوجودية بكلمة يستدعيها وعيه أو جملة يستثيرها لاشعوره.